Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف . المسيلة الجزائر

المجلد 09 عدد : 02 جوان 2021 صفحة من : 66 إلى 77.

التفكيك ومرايا الميتافيزيقا (الاحتفاء بالوهم)

Deconstruction and Mirrors of Metaphysics (celebration of delusion)

المؤلف الأول[1]* حنان حطاب

جامعة محمد لمين دباغين كلية الآداب واللغات .سطيف2 . الجزائر .Hattab.hanane@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الاستلام : 2021 /03/18 .
تاريخ القبول :2021/05/22 .

الكلمات المفتاحية:

الميتافيزيقا– التفكيك–فلسفة الاختلاف– فلسفة الحضور –الفكر الغربي.

ملخص

الملخص: إن الهم الذي صحب مسار التفكيك عند جاك دريدا وأنصاره من الفلاسفة هو البراعة في نقد الميتافيزيقا الغربية وتعرية الفكر الغربي وفضح أنساقه المتوارية بواسطة مقولة الشك ورفض البداهات وخلخلة مقولات الإرث الفلسفي الغربي وزعزعة طمأنينة تمركزها العرقي والثقافي ليكون بهذا قد أخضع التاريخ الفلسفي الغربي لقراءة نقدية استهدفت زعزعة أساسه العقلي وميراثه الميتافيزيقي الذي يشكل هويته ووجوده كما استهدفت هاجسه النرجسي بالسلطة والمركزية الأحادية.

Key words :

Metaphysics - Deconstruction - Philosophy of Differance - Philosophy of Presence - Western Thought

Abstract :The concern that has accompanied Jacques Derrida's course of deconstruction and his philosophical supporters is the dexterity in the criticism of Western metaphysics, stripping Western thought, exposing its hidden patterns by the saying of doubt, rejecting innuendos, disrupting the sayings of the Western philosophical heritage, and destabilizing the reassurance of its ethnic and cultural center. Therefore, he has subjected Western philosophical history to a critical reading aimed at destabilizing its mental basis and its metaphysical inheritance which constitute its identity and existence, as well as targeting his narcissistic obsession with authority and monolithic centralization.

[1] المؤلف المرسل : حنان حطاب

مقدمة

"الشيء الذي ينعكس في المرآة هو وليس هو ،هو لأن صورته طبق الأصل لما هو

عليه من ملامح وعلامات ،وليس هو لأن صورته المنعكسة هي مجرد شبح

لايمكن لمسه أو إدراكه حسيا مثلما نلمس أو ندرك الشيء في حقيقته"[2]

شكل دريدا طفرة في مجال ما بعد الحداثة بسبب جرأة أفكاره وتجاوزه لكل اليقينيات واختلافية طرحه الذي صنفه ضمن "فلاسفة الاختلاف"، حيث كانت ثورة الشك أهم مطلب للتفكيك، شك لايروم الوصول إلى الحقيقة المطلقة ، وإنما يكفر بالسلطة والمركز والتقاليد والنظام والإرث الميتافيزيقي الغربي، "فالبنسبة لدريدا ، يتعين لمواجهة الهيمنة اللسانية الشروع في تفكيك الاستيهامات الأنطو-ثيولوجية والسياسية للسيادة ولميتافيزيقا الدولة الوطنية من أجل عدم السقوط في النرجسية الجماعية لميتافيزيقا اللغة"[3].

إن الأساس الفلسفي الذي يقوم عليه التفكيك هو قلب الهرم الميتافيزيقي والبديهيات والمسلمات وإبداله بالهوامش ،وهذا ماجعل دريدا يخص الميتافيزيقا الغربية بالنقد الشامل والكلي ومن ثمة ، الشك في فاعلية الميتافيزيقا ضمن استراتيجية التفكيك. الأمر الذي جعل صاحب كتاب مدخل إلى الميتافيزيقا أمام ورطة التساؤل حول هذا الإرث/الميتافيزيقي الذي لازم الفلسفة ردحا من الزمن "ما الذي أصاب جميلة الجميلات أو ملكة العلوم...أو قدس الأقداس في معبد الفكر كما يصفها هيغل؟ ما الذي جعل الميتافيزيقا تتوارى خجلا في الفلسفة المعاصرة التي طغت عليها روح العلم تارة ، ومنهج التحليل تارة أخرى؟وكأن التفكير الميتافزيقي أصبح خطيئة وإثما أو شيئا يخجل الإنسان من معاصرته..ما الذي جعل بعض الناس يعتقدون أن البحوث الميتافيزيقية ليست سوى همهمة بغير معنى ،أو أنه يصعب فهمها على أحسن تقدير وأنها تلتقي على صعيد واحد من الموضوعات الشاذة التي لايعترف بها العلم صراحة ولايرفضها تماما بل يكتفي بأن يشيح عنها وجهه متمتما : تستبعد لعدم الاختصاص." [4]

1- الشك /الانقلاب الكلي

جاء التفكيك ثورة لكل ما هو ثابت ونمطي،وتقويضا لكل البنى الداخلية للنص إنه استراتيجية تنطلق من موقف مبدئي قائم على الشك "وقد ترجم التفكيكيون هذا الشك الفلسفي نقدا إلى رفض التقاليد، رفض القراءات المعتمدة، رفض النظام والسلطة من ناحية المبدأ"[5].

والحال إن التفكيك جاء ردا على كل مطالب بلوغ الحقيقة واليقين التي نادى بها رينيه ديكارت Descartes في كتابه تأملات وفي هذا الصدد قال: "للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة في حياته إلى أن يخضع الأشياء جميعا للشك بقدر الإمكان".[6]وعلى هذا الأساس حاول التفكيك تسليط معول الشك ضد الفكر الغربي، و منجزات العلم والعقل والشك في الوعي الإنساني والفردية والحقيقة المطلقة واليقين، فـ "التفكيك إفراز عصر الشك الكامل الذي خيم على كل شيء فاستحالت معه المعرفة اليقينيه، وفقد العالم تمحور ارتكازه."[7]

وقد سعى دريدا لتكريس مبدأ "الشك" و"تقويض" كل مركز ومرجع متعال في الفلسفة الغربية وتحطيم أصنامها ،وزعزعة أنساقها، فهو" لا يثق في النسق باعتباره نظاما عاما يحدد طريقة آداء العلامات ويعطي المدلول حرية اللعب الكامل منفصلا عن الدال، ويبيح للقارئ أن يفسر العلامات بالمعنى الذي يشاء."[8]فكانت قراءته قراءة غيرية اختلافية للإرث الغربي والميتافيزيقا الغربية ، تأثرا بتدميرية الفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر Martin Heidegger الذي دعا إلى تفكيك أنطولوجيا الكلاسيكية مركزا نقده على الخطاب الماورائي حول مسألة الكينونة وقد أقر دريدا بفضله، إذ يعد هيدغر "أول من قرع نواقيس الميتافيزيقا وعلمنا أن نسلك معها سلوكا استراتيجيا يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل."[9] وهكذا اتسعت موجه الشك عند دريدا ومن شايعه أمثال: ميشال فوكوMichel Foucault، رولان بارت Roland Barthes وغيرهما لتطال كل اليقينيات التي سجنت عقل الإنسان وحدت من حريته وجعلته حبيس أنساقه النصية تحت وهم الحقيقة وأباطيل اليقين.

2- نحو نقد فلسفة الحضور

2-1 أفلاطون ووهم المماثلة

حاولت استراتيجية التفكيك أن تفتح الأفق رحيبا على القراءة الغيرية الاختلافية للإرث الغربي ونقض المركزية والإمبريالية وفضح الميتافيزيقا الخفية والمعلنة، فكانت محاولتها تأسيسا لفكر مختلف في الفلسفة الغربية التي ألفت المماثلة مع الإرث الميتافيزيقي القديم. بوصفه عقلا وثوقيا متعاليا دوغمائيا .

إن دعوة دريدا، لمجاوزة الميتافيزيقا سجلت خطوة جريئة مردها العبث باليقينيات والثوابت الفكرية والفلسفية والدينية واللغوية، ورفض عملية الهدم والتطاول التي تمارس تفكيكا لـ ما يعد جزميا (دوغمائيا) ومقرا في الحقول المعرفية ذات الطابع الإشكالي،[10] فليس من

اليسير تقبل العمل التفكيكي الذي انطلق في نقد الفكر الفلسفي الغربي منذ أفلاطون،بما نطلق عليه ميتافيزيقا الحضور La Métaphysique du présence حيث الميتافيزيقا تعنى بالماهية والوجود والجوهر والهوية والذات والوعي وتؤكد أن فكرة الكينونة تتلخص في الحضور، كما تمنح أفضلية للكلام، على حساب الكتابة لارتباطه بقائله، وتعطي امتيازا خاصا لحضور اللوغوس، فالميتافيزيقا ليست تخما واضحا ولا دائرة محددة المعالم والمحيط، يمكن أن نخرج منها ونوجه لها ضربات من هذا "الخارج"، ليس هناك من جهة ثانية "خارج" نهائي أو مطلق، إن المسألة مسألة انتقالات موضعية ينتقل السؤال فيها من طبقة معرفية إلى أخرى ومن معلم إلى معلم،حتى يتصدع الكل، وهذه العملية هي ما دعوته بالتفكيك [11] يقول دريدا.

وعلى هذا الأساس، "فإن سؤال دريدا الجوهري يبقى دائما وباستمرار :كيف نبدد الحضور؟ ذلك الحضور الذي لايفتأ يحضر دون أن يحضر تماما"[12]، ولهذا عمل هذا الأخير على تقويض فلسفة الحضور و دك التقليد الفلسفي الهوسرلي والهيدغري ومحاولة القيام بنفس العمل التقويضي مع البنيوية فيما بعد، ونال أغلب الفلاسفة، على اختلاف آرائهم وتوجهاتهم نصيبا معتبرا من النقض والهدم.وهو تمرد صارخ على كل تشكل للحضور وتأسيس لفلسفة الاختلاف /الغياب الطيفية والعصية على التصور. ولهذا ندبت ستراتيجية التفكيك نفسها لتكريس مبدأ الشك والدعوة إلى التجاوز واجتياز الحدود والتحرر من كل الأفكار والأوهام التي لازمت العقل الغربي والتي رسخت لديه رغبة ميتافيزيقية داخل حيز مغلق، رغبة في جعل التعريف يطابق المعرف، في جعل الأب يطابق الابن ويداخل منطق الهوية، في جعل المعادلة متوازية في غلق الدائرة وبمعنى آخر، يريدنا دريدا أن نغير بعض عادات عقولنا فيعلمنا أن سلطة النصوص مؤقتة.. وأن الأصل أثر و يجب أن نناقض منطق لغتنا ومحوها في نفس الوقت، يريدنا دريدا أن نمحو كل التقابلات بتفكيكها وأن نحتفظ بها في الوقت نفسه.[13]

من هنا بدأت مفارقة دريدا تخوض في المقدس/ الحقيقة، وتبحث في اللامعقول وتفكر في اللامفكر فيه وتزرع ألغام الشك واللاتسليم في كل البواعث والأفكار، ومن هنا وجدت فلسفة أخرى " فلسفة الآخر"/ الغياب، المختلفة عن سابقتها. فالفلسفة من أفلاطون إلى هيغل هي فلسفة الحضور، ونعني بذلك أن الوعي لا يعترف إلا بما يحضر في الوعي لديه، فيتخذ شكل الدلالة والمعنى والقانون والهوية، فيتطابق هكذا مع مقولاته مما يعني أن فكر الإنسان هو مركز الكون.[14]وبهذا يحدد دريدا موقفه من فلسفة الحضور معارضا/ مناقضا لها. ويختار الغياب بديلا عنها رافضا مبدأ مركز Centre غير قابل للطعن أو البحث في حقيقته، لأن هذا ضرب من المثالية والميتافيزيقية والوهمية التي دأبت على إسناد الحقيقة إلى مركز أو سلطة ما، تكتسب مصداقيتها من إحالتها إليه، كما بدل التفكيك وجهة النظر للنص والفكر الفلسفي وأخرجه من دائرة الحقيقة المطلقة والمماثلة المطابقة، واليقينيات الثابتة فلم يعد ينظر إليها على أنها مثال الهوية/ المنطق/ الحضور، بل النظر إليها اختلافا ومفارقة بعيدا عن تلك الرؤى الأفلاطونية التي لخصت المطلق في العقل وجعلته يمثل "مبدأ ذاتية التفسير وليس ثمة مطلق واحد، وهذا المطلق هو العقل، وبما أن العقل حقيقة قائمة بذاتها وأن المادة تدين بوجودها له فهي إذن ليست جوهرا ، إن الجوهر هو العقل.[15]

وهذا منطق الأفلاطونية وجوهر نظرية المثل التي تحول العالم بفضل حضور العقل من الفوضى إلى النظام ومن الاضطرابات إلى الثبات،وتركز على سلطة حضور الحضور داخل العقل, وهي الأفكار التي رفضها دريدا، وناقضها بحثا عن الغياب/ الآخر، إن مفهوم دريدا لفلسفة الحضور هو "اعتراف الوعي بما يحضر لديه فقط، فكيف يمكن (وصف) شيء ما لم يحضر في العقل أو يقاوم الحضور فيه، فضلا عن ميزته الحقيقة الأولى القائلة بأن كل (ما يهرب) إلى الوعي منه على أنه محاولة لفهمه ووضعه، هو ليس منه أبدا ولا يستطيع هذا الفعل إلغاءه أو انتفاء مسألة التفكير (بوجوده)".[16]

لاحظ دريدا أن الميتافيزيقا منذ أفلاطون منحت الكلام أفضلية على الكتابة ذلك أن الكلمة المنطوقة أو الملفوظة مرتبطة بوجود (متلق ووقت)) لصدور القول، فيما يغيب هذا عن الكتابة، هذا ناهيك عن المباشرة في الكلام، والتي تعطيه قوة وحجة وإدراكا أقوى لما يقول القائل وما يعنيه، ما يعني أن الكلام يعكس سلطة حضور الصوت phonocentrisme الذي هو أساس التمركز حول العقل Logocentrisme في المركزية الغربية، فالكتابة عند أفلاطون Platon تقدم زائفة عن العالم, وإن كانت دواء لضعف الذاكرة، وهي مكمل للكلام عن روسو Rousseau ولكنه مكمل خطير ويعبر دوسوسير De Saussure عن خبرته إزاء الكتابة التي تأتي لتقوض بنية الدلالة اللغوية، كما تأتي لتقضي على براءة الشعوب البدائية الخالية من العنف، وتكون الوسيلة الأساسية للهيمنة الطبقية عند ليفي شتراوس,[17] لهذا جاءت استراتيجية دريدا مضادة لهذه الآراء حول الكتابة وبالخصوص لأفلاطون الذي عدها لقيطا يحتاج إلى أب إلى مرجع يعكس الصوت، لذا جلب إلى تشكيل فلسفته الاهتمام بالكلام واللوغوس، ونعت الكتابة بوصفها الخارجة عن هذا الأخير ووسيلة الاتصال المهجنة، والتمثيل الطفيلي الناقص

والرديء،وهي حسب أفلاطون – لا تنتج الحقيقة بل إن نتاجاتها لا تتعدى الظاهر,[18] فالكتابة من منظور أفلاطون طفيلية ذميمة، جامدة صماء، ومحاكاة ميتة للفعل الكلامي الحيوي.

لقد كان دريدا واعيا بالدور الخطير الذي لعبه أفلاطون في تاريخ الفلسفة والتي لا تعدو في نظره كونها حيلا خادعة محاكية لآراء أستاذه سقراط، لهذا كانت "صيدلية أفلاطون" لجاك دريدا وسيلة لتفكيك المزاعم الأفلاطونية، ذلك أن الكتابة هذا اللقيط بامتياز من وجهة نظر أفلاطون لها صفة الأفضلية، مع دريدا، والشرعية والهوية المثلى بدل الكلام فمنحها الاستراتيجية النقدية في رسم فضاء الدلالة، وذكر من جانب آخر أن أفلاطون تحدث عن (اللعب) على اعتباره وسيلة من وسائل تدعيم اللوغوس لا خلخلته وقد وصف دريدا رؤية أفلاطون للعب بأنه خدعة واختفاء لاهوتي للعب في الألعاب وإدانة واضحة لممارسات الكتابة وصنوها اللعب.[19]

وتتكرر نظرة أفلاطون السلبية للكتابة مع روسو حيث عدها إضفاء للتعبير وتقييدا له لا تحمل صفة المصداقية والثقة عكس الكلام الذي هو محور جميع الفلسفات كما أنها مكمل للكلام أو اللغة المحكية: فالقول الملفوظ هو الشكل التأصيلي والأكثر معافاة والحالة الأكثر طبيعية للغة.[20] ولهذا لحق روسو نصيبا معتبرا من النقد والنقض الدريدي، حيث اعتبرت مسيرته حلقة من حلقات التفكير الميتافيزيقي الغربي، في تفضيل (الكلمة المنطوقة) على الكلمة المكتوبة والتي تعكس ولعه الميتافيزيقي بالحضور، حضور المتلقي وحضور المعنى المرتبط أساسا بحضور الملفوظ/ الكلام/ الصوت، أما الكتابة فتمثل الغياب/ غياب النص وغياب المعنى، وهذا ما يشكل لدى روسو خطرا تهدد الكتابة به الحضور.

2-2 هيغل ومركزية البدايات المطلقة

يرمي التفكيك القضاء على كل مركزية غربية مهما تعالت، ولما كان هيغل Hegel أحد أبرز فلاسفة الغرب وأقوى ممثلي هذه المركزية ،راح دريدا يوجه ضربات النقد إلى النسق الهيغلي الوثوقي ،فـ "هو ضد هيغل، لكنه إذ يأخذ في الكلام ضد هيغل فهو ليؤكد ويعترف بحضوره ،يتكلم ضده لا لينفيه ،وإنما ليختلف عنه،لأن الكلام مرة أخرى ينبع من الاختلاف" [21]، إذن سعى دريدا جاهدا لتقويض هذا الصرح الذي يقسم الفلسفة الأوروبية إلى حديثة ومعاصرة أي قمة ما وصل إليه الشعور الأوروبي وهو الذي يقسم العالم إلى معسكرين رأسمالي واشتراكي باعتبار ماركس هو أحد تلاميذه، وهو الذي يغزو الآن من خلال ماركس، البلاد النامية بمنهجه الجدلي الذي أثبت فاعليته وصده في التحليل المباشر للواقع وفي القضاء على التقسيمات المفتعلة والحدود المصطنعة في الفكر والواقع على السواء، كما تعد فلسفة هيغل من أروع ما خلقته الإنسانية لنا من تفكير في الدين، فقد حول هيغل الدين إلى فكر ثم حول الفكر إلى وجود...[22]فاستهدفت ثورة التفكيك

من خلال الثورة على فلسفة الحضور الإطاحة بفكر هيغل بوصفه الرمز الأكبر لميتافيزيقا الفكر الغربي، وهدم النسق الروحي، العقلي والقضاء على فكرة الأصل سبيلا للوصول إلى فلسفة بلا مركز ولا بداية، أي الدعوة إلى فكر اختلافي ،"ولما كان المذهب الجدلي لا يعني عند هذه الحدود سوى مركزية العقل، وثوق الأصل، صحة البداية ،نقائها وصلاحيتها المطلقة المسواة بعناية فائقة من أجل أن تغدو بداية ضرورية لا غنى للعقل ولا بديل له سواها، أقول لما كان هذا المبدأ حاملا لهذه الصفات عند مستوى البداية، الأصل ،والأول ،بل وممثلا لحالة كمال هذه المفاهيم فيه، كان من المقدر عليه أن يكون عرضة لتفكيكية دريدا، هدفا وغاية ينبغي التوجه للإطاحة بها".[23]

وقد وجه دريدا نقدا لهيغل في إطار تصور الدلالة اللغوية أو الفنية التي أرجعها إلى مفهوم أو معنى موحد لا يحمل صيغة التعدد والاختلاف، عكس ما يرمي إليه صاحب التفكيك حيث تصوره للمفهوم الدلالي يتميز بالتعدد والإيحائية وهذا واحد من أوجه التأثر الكبير لدريدا بهيغل على مستوى المنطق الجدلي، ورغم انطلاق كل منهما من اجتماع الضدين واختلافهما إلا أن هيغل عمد إلى حل التعارض بين الثنائيات وتوجيه صيغها في الذات ليتحدد المعنى أولا، وتنتفي صيغ اللاتحديد واللاتعيين.أما دريدا فيعالج الثنائيات من خلال مبدأ الاختلاف الذي يحيل إلى التعدد الحر للمعنى والإرجاء المتواصل للدلالة .كما نقد دريدا تمركز هيغل حول العقل ونفى مثاليته المتحورة حوله وبشر بالكتابة بديلا عن تمركز الصوت وطرح فكرة أن المعرفة لا تستتبع تماهيا بين الذات والموضوع كما ذهب هيغل ، إنما تتراوح احتمالية إقصاء الذات وتجنب إحصائية تموضع المعاني، بمعنى الدعوى إلى اللاإحصاء وهذا ما دفع زيما إلى وصف التفكيكية بـ الهيغلية الشابة[24] .

ولعل أكبر مأزق ميتافيزيقي تورط فيه هيغل هو الوثوقية المطلقة في البدايات الفلسفية وتجاوزها حسبه لمنطق الخطأ والتناقض ،مما وسمها بالمثالية الزائفة "فلم يكن يرى لهذه البداية أن تتجاوز الأخطاء الفكرية الجسيمة التي منيت بها بدايات الفلاسفة السابقين عليه في اتخاذهم من هذه الفكرة أو تلك مركزا وبداية لمذاهبهم والتي تبنى هو نفسه الكشف عن أسباب أخطائها وتناقضاتها ،كبداية سبينوزا وديكارت،...بل أراد أيضا أن تضع نوعا من التأسيس العلمي لإمكانية بداية حقيقية تستطيع التصدي لكل الأسئلة الممكن إثارتها تجاه – الأسئلة التي تنطلق من شيوع الفكرة القائلة باستحالة البداية المطلقة[25]".

وبهذا تكون "الفلسفة من أفلاطون إلى هيغل هي فلسفة حضور ، ونعني بذلك أن الوعي لايعترف إلا بما يحضر–في الوعي–لديه ،فيتخذ شكل الدلالة والمعنى والقانون والهوية ، فيتطابق هكذا مع مقولاته، مما يعني أن فكر الإنسان هو مركز الكون ..غير إن الانقلاب حصل في صف الفلسفة منذ هيدغر ومنه انطلق جاك دريدا يقول بفلسفة الغياب..الفلسفة التي تقول بالآخر المغاير الذي لا يفتأ ينأى عبر صيرورة

الاختلاف[26]" وعلى هذا الأساس يحاول دريدا من خلال اختلافيته القضاء على ميتافيزيقا الحضور التي لازمت الفكر الغربي وطبعت أفكاره وأغرقته في أوهام العقل/ الوجود/ المركز/ الصوت في هدف أسمى هو التأسيس لفلسفة الاختلاف والبحث عن مواطن الغياب.

2-3-هيدغر حبيس الميتافيزيقا

رغم اعتراف دريدا بالفضل المعرفي الكبير لهيدغر عليه بوصفه أول من قرع نواقيس نهاية الميتافيزيقا وعلمنا أن نسلك معها سلوكا إستراتيجيا يقوم على التموضع داخل الظاهرة وتوجيه ضربات متوالية لها من الداخل, أي أن نقطع شوطا مع الميتافيزيقا وأن نطرح عليها أسئلة تظهر أمامها من تلقاء نفسها عجزها عن الإجابة وتفصح عن تناقضها الجواني،[27] إلا أن هذا لم ينقذه من نقد دريدا لمساره الفلسفي ونعته بحبيس الميتافيزيقا لا المتحرر منها.

وضع هيدغر فلسفة مؤسسة على ماهية اللغة في صلتها بالفكر والوجود، ولذلك فهي تعمل على تقويض الرؤية التقليدية للغة والفكر، وطمس ميتافيزيقا الحضور التي هي بكل أشكالها وفي كل أطوار تاريخها قدر وحيد لكن ربما أيضا قدر الغرب الضروري وشرط سيطرته الممتدة إلى كل أرض[28] وبهذا تدميرية هيدغر قريبة من مطامح دريدا في تفكيك التراث المدروس من الداخل وتجزئته إلى بناه الأولية الأساسية من أجل معرفة الكيفية التي تشكل بها،وتبيان تاريخيته والبحث لا فيما يقوله ويصرح عنه وحسب بل الالتفات إلى مالا يقوله. إلى هنا فإن دريدا وهيدغر يبدوان على نفس الخط النقدي لكن دريدا لا يتوانى عن تصويت ضربات النقد له إذ يرسي هيدغر أسس وقواعد الفكر الأصيل والمتمثل في لحظة الوجود أو الكمال حيث يتفوق وبشكل واضح على المعالجة وبالنسبة لدريدا فإن ذلك يمكن أن يمثل فقط حالة كلاسيكية أخرى من حالات التوق الميتافيزيقي الشائعة للبحث عن الحقيقة والأصول.[29]

ما يجعل هيدغر حسب دريدا حبيسا للرؤية الميتافيزيقية ينهج فيها نهج التمركز حول اللوغوس ويسعى لجعل الوجود مدلولا متعاليا، وهو بهذا يسهم في إرساء نفس الأسطورة الميتافيزيقية الغربية الداعية لتأسيس الأصل / الحقيقة/ الحضور، على الرغم من أن أصول كل من المفكك دريدا والمدمر هيدغر "نيتشوية" مشتركة جاءت لقلب الأفلاطونية رأسا على عقب والقضاء على ميتافيزيقا الحضور بحيث يمثل الطرح النيتشوي والدريدي والهيدغري نمطا كتابيا فلسفيا قائما على الشك في جميع الأفكار الباحثة عن الحقيقة والتي تتيح المجال لتحرير الفكر من الدوغمائية المغلفة، وقد تحدث نيتشه بشكل واسع عن البرامج والخدع المنظمة للطرح التفكيكي متبنيا الطرح نفسه في مسيرة التمركز الغربي حول اللوغوس فضلا عن تأكيده أن اللغة ترتبط بسلسلة لامتناهية من العلاقات والاختلافات, ويقود هذا إلى البحث عن الحقيقة فيما وراء التحولات الملتوية للغة التي عبر عنها دريدا بالاختلافات واللعب الحر للدوال.[30]

إن معطيات نيتشه عبرت بشكل صريح عن التوجه التفكيكي في المشروع المابعد حداثي هذا التوجه الذي نحا نحو نيتشه في الدعوة إلى صيرورة الإنسان بلا ذات بلا حدود ولا مركزية وهذا ما جعل دريدا يؤمن بهذه القطيعة مع الذات والقطيعة مع التقاليد الميتافيزيقية الغربية، وتفكيك المعرفة المثالية ومفاهيمها المنهجية وقد نهضت التفكيكية ببعث الشك النيتشوي –الذي وصفه نوريس بأنه تمرد طفولي –وأسلوبه في تفكيك نظم الفكر التقليدي وبذلك أرست التفكيكية تشكيل القراءات الخاصة وصياغتها بإعادة تنظيم البيان النقدي للفكر الغربي من خلال تحليل عقلاني وتبن واع لكل الأراء التي وردت في الأجندة النيتشوية.

أخذ دريدا بمبدأ ميتافيزيقا نيتشه الرامي إلى تفكيك الإنسان وتفتيت اللوغوس وتمزيق الذات والوصول إلى جوهر المبدأ النيتشوي الذي يتهم البشرية بعجز الإرادة والتي تتطلب للخروج من ذلك إرادة أقوى هي "إرادة الإدارة" لكن إذا كان الطرح النيتشوي والهيدغري من منظور دريدا لا يعدو كونه ضربا من الميتافيزيقا وإذا كان التفكيك يمثل الرهان الأكبر على الصمود في وجه الإحراج الميتافيزيقي والاغتصاب المشروع لكل الأطر المنهجية واللغوية التي فقدت شرعيتها وتخلت عن مطلقيتها وإذا كان التفكيك هو القضاء على رؤى الفلسفة الأفلاطونية وآلة هيغل الجدلية وميتافيزيقا هيدغر الخفية وأفكار نيتشه التي لا تخلو من ميتافيزيقية فأين تقع هذه الفلسفة الدريدية من حيث درجة تصديها و تأثيرها في الميتافيزيقا الغربية؟

رغم دعوات دريدا بضرورة تجاوز الوضعية الميتافيزيقية التي أثقلته وإسقاط المثاليات والأوهام الفلسفية المتربسة عبر التاريخ هناك من يجادل في أن التفكيكية لا تقدم تأكيدات إجابية وأنها تعلم فقط حدود التفكير الميتافيزيقي وحدود تاريخ الميتافيزيقا فيما يرى البعض الآخر مقولاتها ودعاويها مجرد رؤى ميتافيزقية فإذا كانت فلسفة الحضور غالت في تركيزها على ما هو ظاهر/ موجود/ حاضر لتقع في الماورائيات فإن فلسفة التفكيك والاختلاف مشروع لا يمكن أن ينحصر في دائرة محددة إنه مغامرة لا يمكن التكهن بنتائجها مغامرة غير محسوبة سقطت في فخ الشبحية والطيفية وتجاوزت سلطة المفاهيم العميقة إلى تصورات هامشية ومفاهيم باروكية.

إن السؤال الذي يطرح نفسه في هذه اللحظات هل لحقت دريدا عدوى الميتافيزيقا بعد أن ورثت تفكيكيته مفرداتها الفلسفية من هيدغر ونيتشه أم تراها لعنة هيغل من تسللت لفكر دريدا مؤكدة أن هيغل هو الرمز الأول والأبقى للمتافيزيقا؟

الأكيد بالنسبة لعادل عبد الله هو أن تفكيكية دريدا على اختلافيتها لا تخلو من تنفس الهواء الميتافيزيقي لأصول هيغلية المحرض والمغوي على العمل بأدواتها والذي لا بد من أن يسفر في نهايته عن دعم الطرح الميتافيزيقي والاستناد إلى الميتافيزيقا كأساس لمنجز هذا الفكر أيضا[31]

خاتمة :

مجمل القول هو أن : مقاربة التفكيك لاتعدو كونها مرآة تعكس أطياف الميتافيزيقا الغربية ،تتلون بألوان العصر وتتخفى وراء صورها وأنماطها الجديدة لتشكل لنا في كل عصر ميتافيزيقا جديدة.

إن طبيعة المقولات الفلسفية التي قام عليها التفكيك ، إضافة إلى القضايا التي قاربها (الحضور/ الغياب/ الهوية/ الاختلاف/ الكلام/ الجدل/ البدء/ الصيرورة...) وطبيعة الأسلحة التفكيكية التي توسل بها (شك/ ثورة/ تقويض المركز/ إحلال الهامش,....) وكذا الوصول إلى نتائج غير مألوفة، غرائبية ،باروكية (لا عقل/ لا مركز/ لا أصل/ لا معنى/ لا حقيقة...) إضافة إلى الأصول النيتشوية والهيدغرية هو ما أعطاها إن لم نقل ألبسها تهمة الميتافيزيقا ومع ذلك "ربما كانت الخطوة الأولى لدريدا ،وهي قفزة في الهواء الطلق تكمن في أنه مارس نوعا من تغيير لنظام حياة، مهتديا من ناحية بالذين شهد لهم التاريخ بطول باعهم المعرفي فيه، حاورهم وهو يقرأهم وهو يدخل في حوار متعدد الجوانب والمستويات حوارا منزوع البداية والنهاية . تعزيزا لما صمم على تحقيقه وهو أن يكون لنظامه الحياتي مايشبه الانقلاب على الذات ليعاين ذاته المنتظرة.[32]

مع كل ماسبق لا ينكر القارئ اختلاف التفكيك ومغايرته للنماذج الفلسفية والنقدية السابقة عنه واللاحقة له ولا يلغي الضجة المعرفية التي خلقها هذا الجديد/ المختلف/ المفكك/ في الفكر الغربي والعربي على السواء.فالتفكيك في نهاية المطاف"اسلوب طيفي يضفي الكثافة على المفاهيم التي تحولت تحت الوطأة الميتافيزيقية إلى مثاليات أو تجريدات ،ويضفي اللطافة على الكلمات التي تحولت تحت الوطأة الواقعية ،إلى ماديات أو تصلبات"[33].

قائمة المراجع:

[2] شوقي الزين، محمد ، 2008 ، الإزاحة والاحتمال، صفائح نقدية في الفلسفة الغربية ، ط1 ، الجزائر ، منشورات الاختلاف ، ، ص236.

[3] دريدا،جاك ، 2013 ، استراتيجية تفكيك الميتافيزيقا حول الجامعة والسلطة والعنف والعقل والجنون والاختلاف والترجمة واللغة،ط1،المغرب ، إفريقيا الشرق ،ص15.

[4] إمام عبد الفتاح إمام، 2005 ، مدخل إلى الميتافزيقا مع ترجمة للكتب الخمسة الأولى من ميتافيزيقا أرسطو ، ط1 ، مصر نهضة مصر ،ص9.

[5] محمود خليل، إبراهيم ، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك, الأردن ، دار المسيرة, ص 306.

[6] مبروك، أمل ، 2006، الفلسفة الحديثة، الدار المصرية السعودية ، ص 88.

[7] حمودة عبد العزيز ، 1998 ،المرايا المحدبة، من البنيوية إلى التفكيك، الكويت ، عالم المعرفة ،ص337.

[8] المرجع نفسه, ص ص 321.

[9] جاك دريدا, الكتابة والاختلاف, ترجمة كاظم جهاد، الدار البيضاء ، دط ، دار توبوقال ، ص41.

[10] ج, سلقرمان, هيو ، 2002 ، نصيات (بين الهرمينوطيقا والتفكيكية), ترجمة علي حاكم صالح, حسن ناظم بيروت, الدار البيضاء, ط1 , المركز الثقافي العربي ، ص86.

[11] جاك دريدا, الكتابة والاختلاف, ص47.

[12] بن عرفة عبد العزيز ،1994 ، الدال والاستدلال ، سوريا، ط1 دار الحوار للنشر والتوزيع ،ص23.

[13] ينظر ساروب مادان ، دليل تمهيدي إلى ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة, ترجمة خميسي بوغرارة ، الجزائر، دط ، مخبر الترجمة في الأدب واللسانيات ،ص77.

[14] عبد الله ، عادل ، 2000 ،التفكيكة إرادة الاختلاف وسلطة العقل، دمشق, ط1 ، دار الكلمة، دار الحصاد، ص13.

[15]إبراهيم, عبد الله ، 2005 ، المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات, بيروت ، ط1 ، المركز الثقافي العربي ص 177.

[16] عبد الله، عادل ، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل،ص14.

[17] دريدا جاك ، 2008 ، علم الكتابة, ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، ، القاهرة,، ط2، المركز القومي للترجمة، ص40.

[18] ينظر, دريدا جاك ، 1998 ، صيدلية أفلاطون ترجمة كاضم جهاد، تونس ، دار الجنوب، ص 13-19.

[19] دريدا جاك ، صيدلية أفلاطون، ص ص 117-119.

[20] نوريس, كريستوفير ، 1992 ، التفكيكية النظرية والتطبيق, ترجمة رعد عبد الجليل جواد, سوريا, ط1 ، دار الحوار، ص39.

[21] بن عرفة عبد العزيز ،الدال والاستدلال،ص18.

[22] حنفي حسن ، 1990 ،الفكر الغربي المعاصر, لبنان, ط4 ، المؤسسة الجامعية للدراسات، ص144.

[23] عبد الله عادل ، التفكيكية إدارة الاختلاف وسلطة العقل، ص79.

[24] ينظر زيما بيار ، 1966 ، التفكيكية دراسة نقدية، تعريب أسامة الحاج ، بيروت ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات ،ص ص 32-31.

[25] عبد الله عادل ، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل،ص80.

[26] المرجع نفسه، ص 13.

[27] دريدا جاك ، الكتابة والاختلاف، ص47.

[28] زيما بيار ، التفكيكية (دراسة نقدية)، ص46.

[29] ينظر نوريس كريستوفر ، التفكيكية النظرية والتطبيق، ص77.

[30] المرجع نفسه، 64.

[31] عبد الله عادل ، التفكيكية إرادة الاختلاف وسلطة العقل، ص158.

[32] دريدا جاك ، 2010 ، المهماز ، مقدمة الكتاب ، ترجمة عزيز توما ،إبراهيم محمود ،ط1 ، دار حواء، ص13.

[33] شوقي الزين محمد ، 2012 ، الذات والآخر (تأملات معاصرة في العقل والسياسة والواقع) ،الجزائر ،ط1 ، منشورات الاختلاف ،ص290.